المحاضرة 02: القضية الفلسطينية في الشعر العربي الحديث والمعاصر

تمهيد:

كانت هزيمة الجيوش العربية سنة 1948 مفاجأة من الأمة لنفسها، وفرصة لمواجهة ذاتها مواجهة صريحة بإعادة النظر في كل ما يحيط بها، سواء أكان ثقافة أم سياسية أم علاقات اجتماعية، ولقد أدرك الشاعر العربي الحديث ألا سبيل إلى ذلك بغير الثقافة، وبغير الاغتراف من منابعها المختلفة.[i] ولعل هذه الدعوة إلى التغيير مردها ما طال فلسطين من آلام ومآسي فقد عانت ولا تزال من استدمار صهيوني عالمي بغيض شرد أبنائها ونهب أراضيها ليقيم فيها مستوطنات شرذمة من اليهود.

ولذلك، فإنه ليس من قبل المبالغة أن نقول: إن شعور الشعراء العرب المحدثين بمأساة فلسطين وإحساسهم بآلامها، وتقديرهم لمعاناتها يتسم بالعمق والقوة، وقد عانوا جميعا ويلات الاستعمار وتجاوزاته في كل الأقطار العربية على اختلاف مناحيها، ولنا في شعر **نزار قباني** مثال حي على ذلك حين يقول:[ii]

لن تجعلوا من شعبنا

شعب هنود حمر

فنحن باقون هنا

في هذه الأرض التي

تلبس في معصمها إسوارة من زهر

فهذه بلادنا،

فيها وجدنا منذ فجر العمر....

يرفع نزار في مستهل هذه القصيدة لهجة المواجهة والتحدي للعدو الصهيوني المحتل، كما يعلن بالمقابل رفضه لأن تتكرر مأساة ومعاناة الهنود الحمر في أرض فلسطين، ويضمن ويصر على البقاء في أرضه بحكم شرعية الوجود العريق فيها، وهي بلادهم منذ فجر العمر.

أما **توفيق زياد** فلا يكتفي بالأمنية والرغبة للبقاء في أرضه، وإنما ينادي بالثورة من أجل المحافظة على بقائه ووجوده فوقها معززا مكرما وذلك حين يقول:[iii]

إن يحبسونا... إنهم

لن يحبسوا نار الكفاح

لن يحبسوا عزم الشباب الحر

يعصف كالرياح

لن يحبسوا أغنية

تعلو على هذي البطاح

شرقية، عربية الألحان،

حمراء الجناح.

لا ينفع في رأي الشاعر إلا الثورة، لأن المحتل يجهل أن سجن الأرض والناس لا يمنع الدم من أن يطهر البطاح كلها، وأن هذه الثورة يشارك فيها الشرقي والعربي، لأن الأمة العربية جسد واحد وكل متكامل لا تمزقه الأحوال مهما عظمت.

ومن خضم نيران الثورة المشتعلة، ومن حمأة الأشلاء والدماء بالجزائر تهز الذكرى الثالثة عشرة لتقسيم فلسطين **مفدي زكريا،** فيلتفت إليها، ويعبر عن مشاعره تجاهها،[iv] مقدما هذه المشاعر على شكل حوارية بينه وبين العرب وفلسطين، فيقول:[v]

أناديك في الصر صر العاتية	وبين قواصفها النارية
وأدعوك بين أزير الوغى	وبين جماجمها الجاثية
وأذكر جرحك في حربنا	وفي ثورة المغرب القانية
ويا قدسا باعه آدم	كما باع جنته الغالية
واضحى ابنه بين اخوانه	يلقبه العرب بالجالية
فلسطين والعرب في سكرة	قد انحدروا بك للهاوية.

وهذه الحالة المزرية التي وصلت إليها فلسطين تأثر بها كل الشعراء المحدثين وانعكست في واقعهم الشعري الذي غلبت عليه نغمة الحزن والكآبة والتجهم، حيث يقول **أدونيس:**[vi]

أبحث في مملكة الرقاد

عن وجهك المدفون، يا بلادي.

ونجد هذه الصور المتلاحقة المعبرة عن صميم الواقع الفلسطيني تتكرر في أشعار الشعراء العرب المحدثين، مع تفرد هذا الشعر أو ذاك في بناء تجربته الشعرية المعبرة عن القضية الفلسطينية حسا ومعنى، من ذلك ما نجده عند شاعر القضية" **محمود درويش"**، حين يقول:[vii]

إنا تعلمنا البكاء بلا دموع

وقراءة الأسوار والأسلاك والقمر الحزين

حرية

وحماية

ورضا يسوع

وكتابة الأسماء:

عائشة تودع زوجها

وتعيش عائشة

تعيش روائح الدم والندى والياسمين.

مفارقة عجيبة يوردها درويش في هذه المقطوعة، أين يؤكد أنهم إذا ما أفلتوا من ظلمة النفي والغربة واللجوء، فإنهم لايتوانون لحظة في العودة إلى حضن الأرض الدافئ، حيث «يتقنون فن الأسر وخروجه والبكاء والوداع والحياة، بين أشلاء القتلى وروائح الدم».[viii]

ويعبر الشاعر **حسين راشد** عن المأساة الاجتماعية للشعب الفلسطيني في الخيام، وتحت وطأة الأغلال وسياط الجند والموت المحتم، وكذا وضعهم المأساوي جراء انتشار جيوش القمل وصديد الجروح... وغيرها، فيقول[ix]:

في الخيام السود، في الأغلال، في ظلال جهنم

سجنوا شعبي وأوصوه ألا يتكلم

هددوه بسياط الجند، بالموت المحتم

ومضوا عنه وقالوا عش سعيدا في جهنم

لن تصبر الخيمة السوداء في المهجر قصرا

وصديد الجرح والإعياء لن يصبح عطرا

وجيوش القمل لن تصبح للأيتام خمرا

إنها تحفز للاجئ قبرا في جهنم.

ولعل الشاعر المعاصر حين ينطلق في مواقفه من القضايا الاجتماعية والمعيشية فإن في اعتقاده أن له الحق في الحياة الحرة الكريمة، والتمسك بالديمقراطية التي يراها حقا من حقوق الأفراد والجماعات لكسب لقمة العيش والتعبير عن وجوده بالذات، ثم إن «... للكاتب شأنا آخر، فالقراءة مثلا لازمة للكتابة ومناقشة الأصدقاء لا غنى عنها، وتوطين النفس على الورقة والقلم دربة يدوية لابد منها، هذه العوامل الثلاثة: القراءة والمناقشة وتوطين النفس أمامها عقبات كثار، والكاتب يخوض نضالا حقيقيا حين يمارس الكتابة الآن.»[x]

وبسحر شعري خاص، نفتح ديوان الشاعر الأردني "**عبد الرحيم عمر**" على قصيدة "عيناك حلوتان" لنجده يقدم فيها أمثولة كونية للمأساة الفلسطينية القومية يعرض فيها مجازيا قصة الطوفان الصهيوني الذي أغرق أبناء القدس الشريف وحاذ بهم عن كل ما هو طبيعي وجميل، يقول:[xi]

وأنت كل عالمي في هذه السفينة

فالآخرون واجمون، استسلموا للموت، للطوفان

وكل زوج للفرار صورتان

خائفتان، ترقبان هجمة الردى

وأنت يا رفيقتي تغالبين الخوف

تزرعين حولك الأمان:

عجل بنا أيها الريان

عجل بنا، ها قمة الجبل يا أيها الريان

الخوف والمنون توأمان.

ولا يزال الكيان الصهيوني يخلق حالات وأفعالا مقيتة من القتل والتشريد والتجويع والتخريب، لم يسلم منها الطفل الفلسطيني الذي خرج من قماطه حيث أصبح عرضة لها على يد المحتمل «الإسرائيلي الذي رام اقتلاع الناس من الأرض وتعقبهم إلى أمهادهم قبل أن يشبوا عن الطوق»[xii]، **ولسعدي يوسف** قصيدة "التفنيد" التي يصف فيها حالة الظلم والاضطهاد التي يعانيها الطفل الفلسطيني، يقول:[xiii]

يقف الطفل الفلسطيني في الحجرة

يصغي الأنبياء

لصرير الحكم

تصغي الطبقة

للإرادية

تصغي المشنقة

لأغاني الطفل

في الساحة كان القمر مبتلا

وفي الحجرة كان العنف المائل مبتلا.

خاتمة:

وصفوة القول إن القضية الفلسطينية لم تكن حكرا على شعرائها وإنما لكل الشعراء العرب المحدثين مرايا في الحديث عنها، وبعث الهمم والنخوة العربية على الاستيقاظ، لأنها مسؤوليتهم جميعا، ذلك أن أبناء هذا النصف الثاني من القرن العشرين، اكتووا بنار الاستدمار اللاهبة في المحرقة الفلسطينية، وانتقلوا كلهم من البؤرة الساخنة إلى الحافة المحاذية لهل مباشرة، ثم إن العلاقة بين الوعي القومي بأشكاله الايدولوجيا والجرح الفلسطيني علاقة سببية، تستدعي تضافر الجهود كلها من أجل الحصول على نير الاستقلال والحرية.